انتقاد على الناقدين

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

اتانا من حضرة القس عبد المسيح زهر مقال مستفاض جال فيه حول ديدن بعض علماء اللغة وادعيالها في انتقاد الكتاب والشعراء انتقاداً مجحفاً بحق الانشاء، مضيقاً على اللغة اساليب الانشاء، وقد ضمنه كثيراً من الملاحظات القيمة والافادات النفيسة. على انه لما كان المشرق قد سبق وذكر الكثير من هذه الامور، رأينا ان نقتصر من مقال حضرة الكاتب على الملاحظات التالية:

المعاجم ناقصة

ان الاوضاع سبقت ولا ريب المعاجم. على اننا نجد كلاماً كثيراً مستعملاً في كلام العرب واشعارهم، ولا نجد له اثراً في المعاجم التي تتداولها الايدي. وهذه هي مزلة قدم لاكثر الناقدين، فانهم متى ارادوا الانتقاد، كلفوا انفسهم التفتيش عن الكلمة التي يرتابون في وجودها، وعربيتها، في كتب اللغة ومعاجمها، بدلاً من التنقيب عنها في كتب العرب ودواوين اشعارهم. واذا رأوها خالية عنها، جازفوا في الحكم، وقطعوا بانها لم ترد في كلام العرب، ولم يستعملها الاولون. والامثال في ذلك كثيرة نقتصر على بعضها

من ذلك «الجمعة» بمعنى الاسبوع لم ترد بهذا المعنى في اكثر المعاجم؛ وقد استعملها صاحب الاغاني اذ قال: «سألت الرشيد ان يهب لي يوماً في الجمعة لا يبعث فيه اليّ بوجه، ولا سبب، لاخلو فيه باخواني، فاذن لي في يوم السبت.»

وهذه «اجواء»، جمع جوّ ناقصة. وقد وردت في كلام الامام علي: «ثم انشأ سبحانه فتق الاجواء، وشق الارجاء، وسكائك الهواء.» والجوّ معنى آخر لم يرد في كتب اللغة؛ وقد جاء في كلام كعب بن زهير، واراد به البرّ الواسع:

«منه تظل سباع الجوّ ضامرة ولا تثني براديه الاراجيل.»

وقال ابن خلدون: «فتشتت في ارض الفضاء فصائلهم، وتعدد في جوّ

القفر افخاذهم وعثانينهم . »

وكذلك « فعيلة » جمعها فعائل بمعنى الاقبال ، والفعايل . قال عنترة :

« يا عبلَ ان سفكوا دمي فقتائلي في كل يوم ذكرهنَّ جديدُ . »

و« تناسبوا الى احسابهم » — اي انتسبوا اليها . قال الاخطل :

« ولقد تناسبتم الى احسابكم وجدتمُ حكماً من السلطانِ . »

و« قرَب » — بمعنى قصد الماء . قال الاخطل :

« اذا ما مصابيف القطا قربت به من التيظ اذآها السرى وهي لقبُ . »

و« البرادة » — على وزن كتابة بمعنى الارسال مع البريد . قال الفرزدق :

« كتبتُ وعجّلتُ البرادة انني اذا حاجةٌ حاولتُ عجّت ركابها . »

« ولي بلاد السرب عند اميرها سوانح جمّات وعندي ثوابها . »

و« تكنّفت الشمس » — قال ابن مقرّن :

« ترى الارض حالت دونه فتكنّفت لمرآه اقتار الدجى والملاعب . »

واذا قلنا ان المعاجم ناقصة ، فتريد التي تتداولها الايدي . واهل المطوّلة لا تخلو من بعض ما ذكرنا .

اغلاط مصلحي الاغلاط

وقد وقع لنا فوائد جمّة جمعناها ، واثبتناها ، واحببنا ان ننشرها خدمة لآداب اللغة :

« ائتمر بامره » — زعم بعضهم ان « ائتمر » بهذا المعنى من باب الغلط ، اذ يقال : ائتمروا بزيد اي امر بعضهم بعضاً بقتله . ولكن المصلح غلط في قوله اذ ان صاحب النجعة قال : « ائتمر بما امرته » وقال الامام علي : « يأمرون بالقسط ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر ، ويتناهون عنه . »

« آنس » — جاء في الضياء : [١ : ٤٨٢] « يؤانس مضارع آنس غلط ؛ والصواب آنس يؤنس ايناساً من فلان ميلاً اليه ، شعر منه بميل ؛ لان الفعل على وزن افعل لا على وزن فاعل . » ولكن الاصح ان « آنس » يكون على وزن افعل وفاعل ، وقد جاء على وزن فاعل في الاغاني : « فما زال يحدثنا ، ويؤانسنا ، طول طريقنا . » وجاء كذلك في رسالة « ايها الولد » للغزالي : « فتفكرت وقلت : افضل محبوب المرء ، ما يدخل في قبره ، ويؤانسه فيه ،

فما وجدت غير الاعمال الصالحة ؛ فاخذتها محبوباً لي ، لتكون سراجاً لي في قبري ، وتؤانسني فيه ، ولا تتركني فريداً . »

«باقة» — قالوا لا يجوز القول: باقة زهر ، بل طاقة زهر . على ان الباقة معناها حزمة البقل ؛ وقد استعملها بديع الزمان الهمذاني اذ قال : « يا ابن المشوّمة ، ذهبت بقناطير ، وجئت باساطير ، لا يبيع بها ذو عقل ، باقة بقل . » فاذا كان يصح القول : باقة بقل ، فلمَ لا يقال : باقة زهر ؟ ولمَ التعنت والتحكم ؟ .

«جرود لبنان» — يقال: مكان جَرْد ، اي لا نبات فيه . وجمعه جرود . فلمَ لا يجوز استعماله ؟ ولمَ نغلط اذا قلنا : جرود لبنان ، بدلاً من صرود لبنان .

«خونة» — ان فاعل السالم يجمع على فَعَلة ، نحو ظالم ظَلَمة ، وعابد عَبَدة ، وكامل كَمَلة ، وساحر سحرة . قال ابن مالك « وشاع نحو كامل وكملة . » ولكن هل يجمع الاجوف على وزن فعَلة ؟ لسنا نعلم . غير ان اليازجي استعمل « خوَنة » في نجعته . وجاء في اقرب الموارد جمع خائك حاكة وحوكة . فاذا كان منقولاً عن ثقة صح جمع خائن خوَنة . والاّ فلا .

«ادمن» — هل يتعدى مباشرة ، ام بالحرف ؟ الاول اشهر . ولكنه قد ورد في الاغاني متعدياً بالحرف : « فجعل يذكر الوليد بن يزيد ، وتهتكه ، وادمانه على الشراب ، ويذكر ذلك في مجلسه ، ويقوم ويقعد به . » فهل هذا من غلط النساخين ، ام من باب تعدية الفعل بحرف مرادفه ؟ .

«ترامى الينا» — قال الشيخ ابراهيم اليازجي في نجعته : « ترامى اليّ » وانكره بعضهم . فمن هو صاحب الحق يا ترى ؟ .

« ريح ، ارياح » — ريح جمعها رياح . ولكن « ارياح » هل هو صحيح ام غلط ؟ . لا ريب في ان رياح وارواح هما الجمعان المشهوران . ومع ان ارواح جمع روح فهو ايضاً جمع ريح باعتبار الاصل وقد جاء في كلام الشعراء . قال عنترة :

« وكما الربيع ربوعها انواره لما سقتها الغاديات عهودها »
« وسرى بها نشر النسيم فعطرت نفحات ارواح الشمال صعيدها »

وقال زهير ابن ابي سلمى المزني :

«قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الارواح والديم.»

ولكن هل يجوز استعمال ارياح ؟ ربما جاز باعتبار الحال . ان الالفاظ التي على هذا الوزن قليلة جداً . منها : جيز ، وزير ، وعيد ، وقيل ، وليث ، اسم نبات ، ونيم . فجيز ، وقيل ، وليث ، ليس لها في اقرب الموارد جمع . اما «زير» فلها جمعان : ازوار ، باعتبار الاصل ، وازيار ، باعتبار الحال . غير ان «عيد» جمعها اعياد ، لا اعواد . فاذا كان العرب ، والفصحاء لم يستعملوا «ارياح» فهل استعمالها يكون من باب الغلط ، او من باب القليل النادر ؟

«زيجة» - ذهب الشيخ ابراهيم اليازجي الى ان استعمال زيجة غلط ، والصواب الزواج . الّا ان هذه الكلمة وردت في الاغاني ، في حكاية «اللصان ابو حردبة وشظاظ» : «فرّ بالقبر الذي انا فيه ، فوقف عليه ، وقال لرفيقه : والله لانزلنّ الى قبر فلان ، حتى انظر هل يحمي الآن زيجة فلانة .» فكانها اسم النوع من زَوَجَ ، اعلّت بقلب الواو ياء فصارت زيجة ، واصلها زوجة .

«اسدى» — يقال اسدى فلان الى فلان معروفاً ، ولا يقال اسدى اليه شكراً . ولسنا نعلم سبب هذا التحكم . قال نُفيل بن مرة العبدي :

«بنيَّ استمع مني هديتَ وصاتيا ولا تكُ عنها مدة الدهر ساهيا اه
«اذا ما امرؤ اسدى اليك امانة فأوفِ بها ان مت سيّتَ وافيا.»

وقال ابن سينا في «كتاب السياسة» : فالرفيق المتثبت لا حوز عليه فضل ما يسديه نصحك .» فاذا كان يقال : «اسدى اليه معروفاً ، واسدى اليه امانة ، واسداه نصحاً» ، فلمَ لا يقال اسدى اليه شكراً ؟ بل من وقف على كلام العرب باجمعه ، حتى يعرف هل نطقوا بهذا التعبير ، او لا ؟ .

«سيّد» — جمعه سادات وسادة ، وقد جمع المتنبي الجمعين في قوله :

«سادات كل انام من نفوسهم وسادة المسلمين الاعبد القزم.»

ولكن هل يجمع اسياد ؟ قال الشيخ ابراهيم اليازجي : «اسياد من لفظ العامة» الّا اننا عثرنا على هذا الجمع في قول النمر بن تولب :

«ابقى الحوادث والايام من غرر اسياد سيف كريم اثره بادي.»

«تطوّر» — اغلب كتابنا يستعملون هذا الفعل . الّا ان بعض الناقدين قال :

« لم يسمع وزن تنفل من هذا الفعل . » ولكن ابن خلدون استعمله قبلنا باجيال اذ قال : « فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوّروا بطور الحضارة والترف في الاحوال . » فان لم يكن من كلام العرب ، فهو من المولّد ؛ والمولّد كثير في اللغة ، ان التشبث بهذه الترهّات لما يؤخر اللغة ويعيق تقدّمها .

«فضاء» — زعم بعضهم ان الفضاء لا يطلق على الجوّ ، فلا يقال : فضاء صافي الاديم . ولكن المنتقد يظهر بهذا القول جهله باللغة . اننا اذا فتشنا عن هذه اللفظة في المعاجم ، وجدنا معنى الفضاء ما اتسع من الارض . الّا ان العرب استعملوها بمعنى الجوّ . قال القزويني : « ان لم يكن في فضاء الافلاك ، وسعة السماوات خلائق ؛ فكيف يليق بحكمة الباري تركها فارغة ، خاوية مع شرف جوهرها . » وقال الامام علي : « ونعقت في اسماعنا دلائله على وحدانيته ، وما ذرأ من مختلف صور الاطيار ، التي اسكنها اخاديد الارض ، وخروق فجاجها ، وراسي اعلامها ، ذات اجنحة مختلفة ، وهيئات متباينة ، مصرّفة في زمام التسخير ، ومرفرفة باجنحتها ، في مخارق الجو المنفسح ، والفضاء المتفرج . »

واستعملها حاتم الطائي بمعنى الفجوة التي بين البيوت :

« وابرز قدري بالفضاء فلا يرى غير مضنون به ، وكثيرها . »

وقال الغزالي : « يلجئون الى ما يشرحهم من النظر الى السماء ، وسعة الفضاء . »

«مارّة» — قيل : جمع مارّ مرّة لا مارّة . قال ابن خلدون : « ومنع كل من اخاف المارّة ، ومنع الخفارة لاولئك الشطّار . »

«وصل» — يقال : وصل الى المكان ؛ ولكن ابن خلدون يستعمل هذا الفعل متعدياً : « ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب . »

« اوقف نفسه » — قالوا : لا يقال اوقف نفسه على خدمة الاداب ، والعلم ؛ بل وقف نفسه . على ان ابن خلدون يستعمل اوقف لا وقف . قال : « وبعثه الى خزانتهم الموقوفة لطلبة العلم . »

هذا ما رأينا وجوب التنبيه عليه في هذه المقالة ، حرصاً على سلامة اللغة من عبث المنتقدين ، ورغبة في كشف القناع عن وجه الصواب ، والسلام .